الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

تاريخ الموصل

تأليف
الشيخ أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي
" ت ٣٣٤هـ - ٩٤٥م "

تحقيق
دكتور علي حبيبة
مدرس بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة



الكتاب
الثالث عشر

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

القاهرة
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم
رئيس لجنة إحياء التراث

كان العرب قبل الإسلام يعيشون فى رقعة من الأرض ، أكثرها صحراء مُجدبة وبيداء مُوحشة ، فى دولة لا تكفى ثروتها لبناء قَصْرٍ من قصور الرومان ، أو معبدٍ من معابد اليونان ، ولم يكد يُبعث فيهم رسول الله عليه السلام ، ويمضى على دعوته سوى قرنٍ واحدٍ من الزمان ؛ حتى فتحوا البلاد ، ودانت لهم العباد ، وملكوا نصف أملاك الدولة البيزنطية فى آسيا وجميع بلاد الفرس وشمال إفريقية وبلاد الأندلس ، وتمت لهم دولةٌ مترامية الأطراف ، فسيحة الجَنَبات ، سايرتها نهضة علمية شاملة تثير العجب وتدعُو إلى الإعجاب ، تمثّل ذلك فى الحواضر الإسلامية فى مختلف الأقاليم التى زخرت بالمدارس ودور العلم وخزائن الكتب . وماجَتْ بالعلماء والأدباء والفلاسفة والرياضيين ما لم يظهر فى أمة من الأمم على الإطلاق .

وقام المؤرخون بدورهم فى تدوين ما وقع فى البلاد الإسلامية من الأحداث ، وما شارك فيه الأعيان والعلماء من السِّيَر فى موكب الحضارات ، والتعريف بنوابغ الرجال ، ممن حملوا مشاعلَ العلم والمعرفة فى مختلف الأجيال وعلى مر العصور ، وكان لكلٍّ منهجه فى التأليف والتصنيف ، فمنهم من أرّخ للأمم والملوك ، كما فعل الطبرىُّ واليعقوبىُّ والمسعودىُّ وابن الأثير وابن خلدون ، ومنهم من تحدث عن الفِرق والملل والنِّحَل كالشهرستانىِّ وابن حزم والمرتضى ، ومنهم من أرخ للمحدثين أو الفقهاء أو النحاة واللغويين أو الفلاسفة والأطباء ، كما قام بذلك البخارىُّ وابن أبى حاتم والمزىُّ وابن حجر والسيوطى وابن أبى أصيبعة والقفطىُّ وغيرهم ، ومنهم من أدار تاريخه على مَنْ عاشوا فى عصور معينة ، كما فعل الشوكانىّ فى أعيان القرن السابع وابن حجر فى أعيان القرن الثامن ، والسخاوىُّ فى أعيان القرن التاسع .

ثم كان من هؤلاء المؤرخين مَنْ عنى بتاريخ الحواضر والبلاد ، وأفردوا المصنفات لكل

صُقْع ؛ كما فعل ذلك الخطيب البغدادىّ والسمعانىّ وابن النجار والدّبيثىّ فى تاريخ بغداد ، وابن عساكر والقلانسىّ فى تاريخ دمشق والمُسبِّحى والمقريزىّ وابن تغرى بردى والسيوطى فى تاريخ مصر وابن حيّان وابن الفرضىّ والحُميدىّ وابن بشكُوال والضبى وابن الأبّار والمقّرىّ فى تاريخ الأندلس ، وكما فعل أيضاً من كتب فى تاريخ مَرْووجرجان وواسط ونيسابور وقَزْوين ، تلك البلاد التى نبت فيها أعلام المفكّرين من العلماء .

وكان من هؤلاء المؤرخين أبو زكريا محمد بن يزيد الأزدىّ الذى عنى بتاريخ الموصل ، والموصل كما يقول ياقوت : « إحدى قواعد الإسلام ، قليلة النظير كبرا وعظمة ، وكثرة خَلْق ، وسعة رُقْعة ، محطّ رحال الركبان ، ومنها يقصد إلى جميع البلدان ، فهى باب العراق ومفتاح خراسان وأذربيجان ، ومن ينسب إليها من أهل العلم أكثر من أن يُحْصَوْا » .

وتاريخها كما يقول محقق هذا الكتاب : « يعالج فترة هامة من فترات التاريخ الإسلامىّ ؛ تلك الفترة التى انتقلت فيها السلطة بعد كفاحٍ طويل من يد الأمويين إلى يد العباسيين »

وقد ضاعت الكتب المؤلفة فى تاريخ هذا الإقليم ولم يبق منها إلا هذا الجزء الّذى وضعه أبو زكريا الأزدىّ فى القرن الرابع الهجرى ؛ من نسخة وحيدة محفوظة بمكتبة شستربتى ، وهو على صغر حجمه يحوى قدرًا وافرا يكشف عن تاريخ الموصل وأخبار ولاتها وقضاتها والعناصر التى عاشت فيها والخلافات القبلية التى وقعت على أرضها إلى أنه مصدر أصيل لمن نقل أخبار الموْصِل بعده كابن الأثير وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين

وقد قام الأستاذ الدكتور على حبيبة بتحقيق هذا الجزء والتعليق عليه وعمل فهارسه ، باذلاً فى ذلك أوسع الجهد فى عناية موفّقة مشكورة .

وقد رأت لجنة إحياء التراث أن تقوم بنشره ؛ ولعل الزمان يعين على ظهور بقية أجزائه ، فتعيد نشره كاملا ، مشاركة منها فى بعث تاريخ الأمّة العربية ، وخاصة تاريخ العصور الذهبية الأولى

والله ولىّ الخير والتوفيق .

محمد أبو الفضل ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أثار أستاذى Professor A J. ARBERRY اهتمامى بتحقيق هذا الكتاب عندما كنت أدرس – بإشرافه – تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط. فى العصور الوسطى بجامعة كيمبردج CAMBRIDGE بانجلترا سنة ١٩٦٢م ، وكان يرى أنه بالرغم من أهمية الكتاب وجدواه فى حقل الدراسات التاريخية الإسلامية فلم تقم محاولة جادة لنشره ، وقال : – عندما اقترح على دراسته – إنه سيكون عملا ناجحا ومفيدا أن يتولى ذلك واحد من المصريين الذين يعرف إخلاصهم فى العمل ؛ ثم ساعد مساعدة قيمة للغاية فى الحصول على الكتاب ، وفى حل بعض المشكلات – أو ما يشبهها – عندما كنت أمارس عملية التحقيق والدراسة

وهو كتاب ينشر لأول مرة ، ولا توجد منه إلا نسخة واحدة فى . مكتبة شستر بتى بدبلن

The Chester Beatty Library in Dublin, Brockelmann, Suppl 1 210, Ms. 3030.
A Handlist of The Arabic Manuscripts, Dublin, By Prof. A J. Arberry,Oxford, 1955-1962

وبالمراجعة الدقيقة وجدت أن جميع الصور الفوتوغرافية له مأخوذة عن نسخة دبلن ، ومنها نسخة هامة مصورة فى مكتبة

The S O A S of London University "A Photo-Copy, 26950 B W"

ونسختان مصورتان بدار الكتب المصرية .

١ – تاريخ ٢٤٧٥ .

٢ – تاريخ ٢٣٠٣ «تيمور» .

والنسخة الثانية تبدأ بصفحة ١٨٣ ، وكتب فى أولها أنها صورت بالقاهرة سنة ١٣٤٦هـ ، ومن الواضح أنها صورت عن النسخة الأولى التى هى صورة كاملة من نسخة دبلن المشار إليها .

وهذا عدا كثير من النسخ المصورة التي يحتفظ بها عدد من الناس في مكتباتهم الخاصة

* * *

لقد اختفى تاريخ الموصل هذا بعيدا عن الأنظار ، وفشل في إثارة انتباه الدارسين مع أنه يناقش الكثير من موضوعات التاريخ الاسلامي بوعي وصراحة ، ويعالج فترة هامة من فترات ذلك التاريخ ، تلك الفترة التي انتقلت فيها السلطة - بعد كفاح طويل - من يد الأمويين إلى يد العباسيين ؛ ويصف بأصالة تامة الأسباب الرئيسية التي ساعدت على تحطيم دولة الأمويين ، والتي مكنت للعباسيين ذوى الوعي السياسي والخبرة الإدارية من أن يؤسسوا دولة نالت الكثير من المدح والتقدير وعانت الكثير أيضا من النقد والتشهير .

ومع أهمية الكتاب وأثره الكبير في جميع الكتب التي عالجت الموضوع الذي تعرض له أبو زكريا - وأعني به تاريخ الموصل - ، أو ومع أن هذا الكتاب يعتبر المصدر الأول لكل المعلومات التاريخية الخاصة بالموصل والتي نراها في كتاب الكامل لابن الأثير ، أو في كتاب العبر لابن خلدون ، أو في تاريخ الموصل لسليمان صايغ ، وفي كتب أخرى كثيرة - فقد ظل مجهولا وبعيدا عن متناول الدارسين ، لا ينال شيئا من عنايتهم أو اهتمامهم ، وذلك بالرغم من الجهود الموفقة -في الشرق والغرب- لنشر كل ما كان ذا قيمة من المخطوطات العربية .

وربما كان وجود الكتاب في دبلن بعيدا عن مراكز الثقافة في الشرق - بعيدا عن القاهرة وبيروت وبغداد ودمشق ، وبعيدا أيضا عن عواصم الغرب الكبرى التي يذهب إليها الدارسون من الشرق والغرب باحثين عن الجديد والمفيد كلندن ، وباريس وبرلين - ربما كان هذا بعض السبب في هذا النسيان الطويل .

ثم تضاف صعوبات أخرى قللت من الجهود التي كان من الممكن أن تبذل في سبيل نشره ، ولعل من أهمها أن للكتاب نسخة واحدة ومعنى ذلك أنه ليس من الممكن مقارنة نسخة منه بأخرى واعتبار إحداهما أما ينبغي الاعتماد عليها ، ثم هي نسخة مضى على وفاة مؤلفها ألف سنة وخمسون عاما أو تزيد ، وقد ملئت بالأخطاء والحذف والتشويه ، وعمل كهذا يحتاج إلى وقت وصبر طويلين ، وإلى جهد أكيد يصرف النية ، ويبعد الرغبة ، ويدفع إلى التردد

لقد شارك كتاب أبى زكريا صاحبه حظه فى الإهمال ، فلم تفقد أربعة أخماس مؤلفاته العلمية فقط، بل لقد ضاع اسمه أيضا بحيث لا نجد له ذكرا كثيرا فى المصادر العربية الرئيسية ، ومعنى ذلك أنه لم يكن هناك شىء يذكر الباحثين بأبى زكريا وآثاره ، ولا سيما هؤلاء الذين يعتمدون على المصادر العربية خاصة فى بحوثهم وجهودهم العلمية

ولست بهذا أريد أن أقدم الثناء على عمل قمت به فى حماس ورغبة ، ولكنى أحاول أن أجد جوابا لسؤال يعرض — ولا شك — لمن يقرأ الكتاب وهو : لماذا تأخر دوره فى النشر والتحقيق ولم يثر انتباه الباحثين طول تلك الفترة من الزمن ؟ ألأنه كتاب لايقدم شيئا أو لايقدم الكثير لحقل التاريخ الاسلامى الذى يرحب بكل الجهود وتفيده المحاولات الجادة ؟

ليس هذا قولا صحيحا ، لأن كتاب تاريخ الموصل يعالج فترة طويلة من تاريخ الاسلام العام (١) ويسجل بوضوح وصراحة مواقف هامة فى هذا التاريخ ، ولعله يزيد عن غيره ممن سبقوه من المؤرخين ، وهو عندما يتحدث عن تاريخ الموصل نراه المصدر الأول لكل الكتابات اللاحقة ، ونراه مؤرخا شجاعا عاش أيام العباسيين ولا يخشى أن يسجل فى إسهاب وحماس اضطهادهم لبلده ، وسوء تصرفهم بها ، واهتمامهم برغبات شخصية يصلون إليها فوق الكثير من الضحايا ، ويعجب القارئ من أبى زكريا عندما يجده صريحا دقيقا حين يصف الاضطهاد العنيف الذى تعرضت له الموصل على يد أول الولاة العباسيين يحيى بن محمد الذى اتهم سكان المنطقة بالولاء للأمويين ، واعتبر ذلك جريمة خطيرة عاقبهم عليها بالقتل الجماعى ، واتخذ مسجد المدينة مكانا لتنفيذ العقوبة وكان قد دعا الناس إليه موهما إياهم بأن بيت الله خير ملجأ لمن يريدون الأمن والسلامة ، ثم قتل فيه عددا كبيرا من الناس ، وأباح بعد ذلك لجنوده احتلال بيوتهم وإباحتهم ، حتى يقول أبو زكريا : إنه قتل ثلاثين ألفا من الرجال غير النساء والأطفال الذين شملتهم العقوبة كذلك ، ويقول إن خليفة العباسيين الأول أبا العباس السفاح كان لايدرى لهذا العمل سببا ، ولم يجد له أبو زكريا مبررا غير حوادث فردية لاتدعو لمثل هذا القسوة البالغة

وعندما يعرض الكتاب لولاة الموصل يذكر أعمالهم وجهودهم فى سبيل تحقيق الرخاء بها ،

---

(١) من سنة ١٠١ — ٢٢٤ ﻫ / ٧١٩ — ٨٣٨ م.

ويحرص على تسجيل علاقاتهم بالحكومة المركزية بدمشق أو بغداد ، ويبين الطريقة التى استولوا بها على السلطة ، ودرجة ولائهم للخليفة ، ثم لاينسى أن يذكر رأى الخليفة فى إدارة المنطقة ، وهو رأى كان يتلون باتجاهاته السياسية وبدرجة صدقه فى الإخلاص لرعيته .

ويذكر فى أربع وعشرين صفحة(١) أنساب بعض القبائل اليمنية التى سكنت الموصل أو المناطق حولها ، ويتعرض لشعر شعرائهم ، وللمكان الذى كان يعيش فيه ذوو الشهرة منهم ، ودورهم فى الحركات السياسية بالدولة الاسلامية ، وجهدهم البطولى فى ميدان المعارك العسكرية ، ويحرص على التعريف بالمتصوفين الذين اشتهروا فى تلك القبائل ويذكر نسبهم وأسرهم وأقوالهم وشيئا عن حياتهم ومدى فهمهم لشئون الدنيا وانصرافهم عنها .

وقد يبعد بنا الطريق لوحاولنا تعداد الملاحظات الدقيقة التى فطن لها أبو زكريا بوعى تام ، وهو مؤرخ عاش فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين .

* * *

يقع المخطوط المذكور فى ٣٦١ صفحة — ١٨١ لوحة : ٢٥×١٧ سنتيمترا — ، وبكل صفحة ٢١ سطرا ، ومتوسط الكلمات فى السطر الواحد إحدى عشرة كلمة ، وبه عدد من التوقيعات فى أوله وآخره ، بعضها واضح سهل القراءة ، وبعضها الآخر غامض كل الغموض ؛ ومن بين التعليقات القليلة على الكتاب نجد تعليقات مختصرة وغير هامة بل وخاطئة أحيانا(٢) .

واسم ناسخ الكتاب إبراهيم بن جماعة بن على ، ويقول : إنه انتهى منه فى ١٦ ربيع الثانى ٦٥٤هـ ١٢٥٦م ، ويبدو أنه كان لايتمتع بنصيب وافر من العلم بالتاريخ ، فقد حرف كثيرا من الأسماء(٣) ، ونسخ بعض المسائل التاريخية نسخا آليا تدخل فيه أحيانا بالتحريف لعدم الفهم ، ثم إنه رقم الكتاب بالأعداد المسلسلة المعروفة ومع ذلك لايشير الترقيم إلى تتابع الصفحات .

---

(١) انظر الصفحات ٧٨ — ١٠٢ .

(٢) انظر هامش ص ٤٠ .

(٣) بالكتاب أمثلة كثيرة على هذا التحريف وقد أشرت اليها عند كل اسم محرف .

إذ يلاحظ أن :

صفحة	٤	يجب أن تلي صفحة	٥
»	٥	»	٦
»	٦	»	٧
»	٧	»	٨
»	٨	»	٣
»	٩	»	٤
»	١٦	»	١٩
»	١٧	»	٢٠
»	١٨	»	٢١
»	١٩	»	٢٢
»	٢٠	»	٢٣
»	٢١	»	٢٤
»	٢٢	»	٢٥
»	٢٣	»	٢٦
»	٢٤	»	٢٧
»	٢٥	»	٢٨
»	٢٦	»	٢٩
»	٢٧	»	٣٠
»	٢٨	»	٣١
»	٢٩	»	٣٢
»	٣٠	»	٣٣
»	٣١	»	٣٤
»	٣٢	»	١٥

صفحة	٣٣	يجب أن تلى صفحة	١٦
»	٣٤	»	١٧
»	٣٥	»	١٨

ومعنى هذا أنه رقم الصفحات بعد كتابتها وبعد اختلاطها وبدون فهم ، أو أن غيره رقمها لمجرد إحصاء عدد الصفحات بالكتاب .

ويقسم الكتاب إلى أجزاء أو فصول ، ولكن هذا التقسيم لايعنى أى نوع من التنظيم ، فقد ينتهى جزء ويبدأ جزء آخر قبل أن تنتهى القصة التى هو بصدد الحديث عنها ، وقد تجد جزءا يزيد على مائة صفحة ، وجزءا آخر لايزيد على صفحات قليلة فمثلا :

جزء	١١	يبدأ	صفحة	٤٧
»	١٣	»	»	١٤
»	١٤	»	»	٨٩
»	١٤ « أيضا »	»	»	١٧٥
»	١٥	»	»	٢١٨
»	١٦	»	»	١٣٩
»	١٦ « أيضا »	»	»	٢٥٩
»	١٧	»	»	٢٣٦
»	١٧ « أيضا »	»	»	٢٩٤
»	١٨	»	»	٢٧٥
»	٢٠	»	»	٣٣٥

وليس بالكتاب ذكر لسنة ١٢٤هـ ولا لسنة ١٥٢هـ ، وهو يتحدث عن السنوات الهجرية من ١٠١ إلى ٢٢٤ ، وربما أغفلهما الناسخ أو لم يتحدث عنهما المؤلف نفسه ، وبالمقارنة بما ذكره الطبرى من الحوادث فى هاتين السنتين نجد أنه لم يذكر شيئا ذا أهمية مما يشير إلى أن عدم الحديث عنهما كان من عمل المؤلف نفسه .

* * *

عند التحقيق لم يكن هناك سبيل إلى اختيار طريقة أخرى غير تلك التى اتبعتها فقد كنت

مدفوعا بالاضطرار إلى مراجعة كل قضايا التاريخ العامة التى سجلها أبو زكريا فى كتابه ـ مراجعتها فى كل الكتب التاريخية الهامة ، ولاسيما كتب أولئك المؤرخين الذين سبقوا أبا زكريا ـ وهم قليلون ـ وكتب الذين عاصروه أو أتوا بعده بقليل؛ ومن أهم المصادر التى أفادت فى هذا الصدد كتاب تاريخ بغداد لابن أبى طاهر طيفور ، وكتاب تاريخ الرسل والملوك للطبرى ، وتاريخ اليعقوبى ، ومروج الذهب للمسعودى ، والمعارف لابن قتيبة ، والأخبار الطوال للدينورى ، والولاة والقضاة للكندى ، وفتوح البلدان للبلاذرى ؛ وقد وثقت هذه المصادر المهمة القضايا التاريخية العامة التى ذكرها أبو زكريا ، وقد استطعت بواسطتها تصحيح بعض العبارات أو الكلمات المحرفة وإضافة ما كان ساقطا أو ممحوا .

ولما كان أبو زكريا مغرما بالحديث عن المحدثين ـ وهو نفسه محدث وله كتاب فى طبقات المحدثين ـ فقد كان ضروريا أن أراجع جميع الأسماء التى ذكرها وهى كثيرة تبلغ ٤٣٥ اسما ـ أن أراجعها على كتب التراجم المشهورة مثل : تذكرة الحفاظ ، وميزان الاعتدال للذهبى ؛ وتهذيب التهذيب ، ولسان الميزان لابن حجر ؛ وخلاصة تذهيب الكمال للخزرجى ، ومشاهير علماء الأمصار لابن حِبان ؛ ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وغيرها ، وقد كان الأمر سهلا عندما كنت أجد لأولئك الذين تحدث عنهم أبو زكريا ذكرا فى كتب الطبقات أو التراجم فكنت أراجع الاسم فى أكثر من مرجع لأتحقق من ضبطه وتصحيحه ، ولكن الصعوبة كانت تبدو أمامى هائلة عندما يعرض لرجال لم تتعد شهرتهم حدود بلدهم الموصل ، فتركتهم كما ذكرهم المؤلف مشيرا إلى أننى لم أجد لهم مرجعا آخر يعين على إبداء الرأى فى تحقيق أسمائهم .

ويشير أبو زكريا عند الحديث عن بعض هؤلاء العلماء إلى ضرورة الرجوع إلى كتابه الخاص بتاريخ محدثى الموصل ، ولكنه كتاب مفقود لا نعرف إلا اسمه ولا ندرى شيئا عنه إلا إشارات متناثرة فى كتب بعض المؤلفين مثل الذهبى والسمعانى والخطيب البغدادى وابن الأثير وغيرهم ، غير أنهم ـ فيما يبدو ـ لا يهتمون إلا بعلماء الموصل المشهورين الذين تتحدث عنهم كتب أخرى غير كتبهم ، وقد يكون أبو زكريا هو المصدر الأول لكل المعلومات عنهم إلا أن أمرهم قد ذاع ، وبقى الآخرون ـ الأقل شهرة ـ لم يعن واحد بالحديث عنهم غير أبى زكريا فى تاريخ الموصل .

ثم يذكر أبو زكريا فى كتابه ٧٠٠ بيت من الشعر ، بعضها يمكن مراجعته على ما فى كتاب الطبرى أو ابن أبى طاهر أو غيرهما ، وبعضها لم أجد له مصدرا آخر يمكن أن يساعد فى عملية التوثيق والتصحيح ، ولهذا حاولت جاهدا مخلصا أن أستشير مصادر الأدب العربى الهامة كالأغانى والأمالى والعقد ، وجميع دواوين الشعراء الذين ذكرهم أبو زكريا — إن كانت لهم دواوين يمكن الرجوع إليها . وبقى أخيرا قدر كبير من هذا الشعر لم أجد شيئا منه مذكورا فيا أمكن الحصول عليه من المراجع ، وقيل بعضه على لسان أبطال المعارك القبلية بالموصل ، وبعضه لشعراء لا شهرة لهم خارج حدودها ، ثم إنه قيل فى مناسبات محلية تعرض أبو زكريا لذكرها والحديث عنها ، ولم يهتم أحد من المؤرخين بالوقوف عندها أو بيان شىء يتصل بها ، وهو قدر هام يضيف شيئا جديدا إلى الشعر العربى ، ولكنه ربما لايزال فى حاجة إلى التحقيق أو إلى الدراسة الأدبية المتخصصة التى هى من عمل النابهين من الأدباء .

وأما بالنسبة لتاريخ الموصل الذى يشكل أهم قسم فى الكتاب كله ، ويعتبر كتاب أبى زكريا المصدر الرئيسى الهام له ، فقد وجدت بالموازنة والمراجعة أن ابن الأثير — وهو مواطن موصلى لأبى زكريا ، عاش مثله بالموصل وإن فرقت بينهما ثلاثة قرون طويلة(١) — وجدته قد نقل من كتاب أبى زكريا مالم يجده فى غيره مما يتصل بتاريخ الموصل ، ولم يزد عليه شيئا ، ولقد اختصر كلام أبى زكريا أحيانا مع محافظته على الكثير من ألفاظه وعباراته ، وأصبح من الممكن — فى بعض الحالات أو فى أكثرها — مراجعة النصوص التاريخية فى كتاب تاريخ الموصل على كتاب الكامل لابن الأثير ، فأفاد كتاب الكامل إذا فى توثيق بعض الأخبار ، وفى تصحيح الكلمات الغامضة وفى إضافة الكلمات المحذوفة فى تاريخ الموصل ، غير أنى اضطررت إلى أن ألجأ أحيانا لمجهودى المحدود ، ووضعت الشرح بالهامش ، أو وضعت كلمة يتوقف عليها فهم المراد بين قوسين ، وأشرت بوضوح إلى أنها ليست بالأصل ، ولم أضف شيئا إلا عند الحاجة الأكيدة .

ونظرة سريعة إلى المراجع التى لجأت اليها لتحقيق هذا المخطوط تعطى فكرة عن مبلغ العناء الذى واجهته برضا .

---

(١) توفى ابن الأثير سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م

أبو زكريا الأزدى

لم تعرض كتب التاريخ أو كتب التراجم والطبقات العربية بشيء لأبى زكريا ، ونجدها كلها تصمت صمتا يكاد يكون تاما عن ذكر ما يتعلق بحياته أو بمركزه العلمى ، وذلك على الرغم من أن الدارسين يجلون الكثير ، وأحيانا الكثير للغاية عن أسماء لم يكن لأصحابها حظ كبير فى حمل لواء الثقافة فى عهد من العهود ، أو لم يكن لأصحابها جهود تفوق جهود الشيخ أبى زكريا الأزدى الذى أصابه سوء الحظ فنسى اسمه وضاعت كتبه ، ولا نعرف عنه إلا القليل الذى ذكره الذهبى فى تذكرة الحفاظ ، وما بعد ذلك ليس إلا ملاحظات مختصرة ومنتشرة فى كتب من جاء بعده واستفاد منه أو اعتمد عليه من المؤلفين ، وحتى أولئك الذين انتفعوا بتاريخه كالذهبى وابن الأثير وغيرهما نجدهم غير راغبين فى الحديث عنه أو الإشارة إليه بله الإشادة به . يقول الذهبى : إنه انتفع كثيرا من تاريخ أبى زكريا الأزدى ، ومع ذلك لايترجم له إلا بخمسة أسطر [1] ، ولا يعطى صورة ما عن شخصيته وحياته وثقافته وظروف بيئته ، ويكتفى بذكر اسمه وعمله ، ثم يعدد بعض شيوخه وبعض تلاميذه ، ولا يزيد على ذلك شيئا ، ويعترف ابن الأثير فى مقدمة كتابه الكامل بفضل الطبرى عليه ، ولايذكر اسم أبى زكريا ، مع أنه أخذ منه كل ما كتب عن تاريخ الموصل — وأخذه ابن خلدون بدوره من ابن الأثير — لايذكره إلا فى كتابه «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» إذ يقول [2] : إن كتاب أبى زكريا الأزدى كان من المصادر الأولى التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه هذا ، وليس من المعروف بالتحديد أى كتاب من كتب أبى زكريا يعنى ابن الأثير ، ويغلب على الظن أنه يشير إلى كتاب طبقات محدثى الموصل ، وهو أثر مفقود من آثار أبى زكريا وقد يكون أعظمها شهرة

ومؤلف تاريخ الموصل هو . الشيخ الحافظ الإمام القاضى أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس «أو إلياس» بن القاسم الأزدى الموصلى المتوفى حوالى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م . ومن شيوخه :

١ — اسحاق بن الحسن الحربى

٢ — محمد بن أحمد بن أبى المثنى .

٣ — عبيد الله بن عنام

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ ٣/١٠٩ .

(٢) ص ١١ من المقدمة

٤ ــ مُطَيَّن الحضرمي .

٥ ــ الحسن بن سعيد بن مِهْران .

٦ ــ على بن الحسن القَطَّان .

ومن تلاميذه .

١ ــ مُظَفَّر بن محمد الطوسى .

٢ ــ أبو الحسن بن جامع .

٣ ــ نصر بن أبى نصر الطوسى العطار .

ولا نكاد نجد فى الكتب العربية شيئا ذا قيمة عن شيوخ أبى زكريا أو عن تلاميذه ، ويبدو أن هناك أسبابا منعت من أن يأخذ أبو زكريا مكانه فى صفوف العلماء المسلمين الذين تمتلئ بذكرهم صفحات المؤلفات الضخمة .

ومن الألقاب الممتازة التى منحت للشيخ أبى زكريا نفهم أنه كان حافظا من رجال الحديث : وقد ألف كتابا عن المحدثين يتردد ذكره فى كثير من مؤلفات رجال الحديث ؛ وهو إمام من أئمة المسلمين ومن ذوى الرأى وحاملى الثقافة منهم ، ثم هو قد عمل قاضيا للعباسيين وإن كنا لاندرى أين ومتى شغل هذه الوظيفة ، وكان الحفاظ الأئمة يرشحون لها دائما ويكرهون على قبولها أحيانا ، وأخيرا هو رجل من الأزد ، ولعل هذا مما يفسر تحمسه لقبائل اليمن ، فهو يحرص دائما على ذكر أنسابهم وأعمالهم ويشيد ببطولات الأفراد منهم ويذكر على لسان المنصور حديثا هاما يثنى فيه الخليفة على قبائل اليمن التى كان منها ملوك الجاهلية ، والتى أخلصت الولاء لمن أخلص لها الود من الخلفاء ــ كما يقول الخليفة فى حديثه ــ ، ولكن هذا لايعنى أن أبا زكريا كان رجلا متعصبا لقومه حريصا على تجاهل أعمال الآخرين ، فقد صدق القول وإن مال بقلبه وعواطفه نحو عرب الجنوب .

* * *

ألف أبو زكريا الأزدى ثلاثة كتب مهمة ، ويمكن إدراك أهميتها من الثناء الجميل الذى يضفيه عليه مؤرخون ومؤلفون من ذوى المكانة الطيبة فى الثقافة العربية مثل : السمعانى والذهبى ، والخطيب البغدادى وياقوت الحموى ، وابن حجر وابن الأثير وغيرهم .

يقول أبو زكريا فى صفحة ٩٦ من تاريخ الموصل : إنه ألف كتابا ترجمته « القبائل والخطط » ولم ينل هذا الكتاب أى اهتمام من أى باحث ولم تشر إليه المراجع التى نعرفها ، وفى صفحة ٣٠١ من الكتاب المشار إليه يقول إنه ألف كتابا آخر اسمه : « كتاب طبقات المحدثين » ، ولهذا الكتاب شهرة كبيرة ، وله ذكر فى كتب المتأخرين ، ويعتبر مرجعا هاما للمؤلفين السابق ذكرهم ، ويمكن أن نعرف شيئا عنه من كتبهم ، على أننا قد نلجأ إلى الظن فى تعيين الكتاب الذى اعتمد عليه هؤلاء المؤرخون ، لأنهم يشيرون أحيانا إلى كتاب تاريخ الموصل ويقصدون به تاريخ المحدثين ، ويذكر أبو زكريا نفسه شيئا كثيرا عن محدثين موصليين وغير موصليين فى كتابه تاريخ الموصل مع أنه أفرد للمحدثين كتابا خاصا أطلق عليه : كتاب طبقات المحدثين ، ويظهر أن هذا الكتاب كان كتابا ضخما ، والدليل على ذلك قول الذهبى[1] — عندما تحدث عن المعافى بن عمران الموصلى — : إن أبا زكريا الأزدى ترجم له فى تاريخ المحدثين فيما يزيد على عشرين صفحة » ، ويمكن أن نستنتج من الثناء الكثير على مؤلف هذا الكتاب أنه كان كتابا قيما ، وأن نقول إن من سوء الحظ أن تفقد المكتبة العربية مثل هذا العمل العظيم .

وتاريخ الموصل هو الكتاب الثالث لأبى زكريا الأزدى وهو من ثلاثة أجزاء — كما ينص على ذلك المؤلف نفسه فى الجزء الثانى الذى نقدم له — ولا ندرى شيئا عن الجزأين الأول أو الثالث فلقد فقدا كما فقدت كتب المؤلف الأخرى ، وإذا كان أبو زكريا قد عاش فى فترة مضطربة من التاريخ العباسى ، فترة كانت مليئة بالأحداث الهامة — ، فقد مات سنة دخول البويهيين بغداد[2] ، وربما ولد أيام قتل المتوكل بيد جنوده الأتراك ٢٤٧ هـ // ٨٦١ م أو بعد ذلك بقليل — فكم كان من المفيد حقا أن يكون لدينا الجزء الثالث من تاريخه لنرى كيف عالج هذا المؤرخ القدير تاريخ العباسيين فى الوقت الذى عاش فيه .

ونحن هنا نواجه بسؤال ربما يكون من الخير التعرض له ، وفى الإجابة عنه إجابة عن سؤال آخر عرضناه ، وهو : لماذا لم يحظ أبو زكريا بشىء من الشهرة؟

ولماذا تردد الكثيرون فى الحديث عنه رغم جهوده وأثره كعالم ومؤلف ؟

والسؤال الآن هو : لماذا ضاعت كتبه ؟

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ ١/٢٦٢ .

(٢) ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م .

وقد نجد الإجابة عن هذا كله فى القول بأن أبا زكريا عاش بعيدا عن مركز الشهرة فى بغداد ، وقنع بالحياة فى الموصل حيث لاتصله الأضواء ، أو لاتصله إلا الأضواء الخافتة ، فلم يحظ بشهرة كبيرة ، ثم كانت شجاعته سببا فى إغفال اسمه عمدا ، فقد عاش فى العصر العباسى ومع ذلك يكشف فى مناسبات عديدة عن معارضته للسياسة العباسية ويلق اللوم على العباسيين خلفاء المسلمين وعلى ولاتهم الظلمة أيضا ، ويصف فى قصة طويلة اضطهادهم لبلده ، ويقول على لسان أحد العلماء إنهم كانوا غير مسلمين ، وينال منه المنصور قسطا كبيرا من التعنيف ، ويراه أبو زكريا طاغية يجرى وراء مطامعه السياسية ، وليس هناك فى رأيه فرق كبير بين العباسيين والأمويين ، وربما كان يرى فى الأمويين خيرا لأن سياستهم نحو بلده كانت تختلف عن سياسة العباسيين ، فقد ولى الأمويون رجالا مشهورين قاموا بإصلاحات كبيرة أسعدت البلد بالرخاء وأراحت أهلها ، وكان منهم يحيي بن يحيي الغسانى الذى خفف الجزية عن أهل الذمة بأمر عمر بن عبد العزيز ، والحر بن يوسف الذى حفر نهر الموصل بأمر هشام بن عبد الملك ليعفى الناس من نقل الماء من مسافات بعيدة ، والوليد بن تليد الذى أتم عمل من سبقه وأسهم فى رخاء الموصل ، وأما العباسيون فكانت لهم سياسة مخالفة ، كانوا يقتلون على الشبهة ولا يولون إلا الظلمة ولا يريدون إلا المال ، ومن ولاتهم يحيي بن محمد السفاح قاتل أهل الموصل كما يقول أبوزكريا والحرشى المستبد الذى كان يجمع المال إرضاء لرغبات طائشة ، ثم تبعه آخرون كانوا على مثاله ظلمة آثمين . ويقول أبو زكريا عن الرشيد إنه كان يرتكب أعمال الظالمين ، ولا يولى على الموصل إلا القساة الخاطئين ، وقد جمع له واليه على الموصل مرة ستة ملايين من الدراهم بالعنف الشديد حتى خربت قرى كاملة وفر أهلها فى كل اتجاه عجزا عن الوفاء بما يريده الوالى من ضرائب باهظة عن سنين متأخرة ، ويقول إن هذا الوالى العسوف أرسل المال للخليفة فوهبه بدوره لغانية رفضت قبوله عندما علمت بطريقة جمعه (١) ، وأخيرا استيقظ ضمير الوالى وأسف للظلم الذى ألحقه بالناس ، وتعجب من تصرفات الخليفة ذى الشخصية المعقدة الذى يقول عنه أبو زكريا إنه كان قاسيا حتى لقد أقسم أن يقتل جميع سكان الموصل ليخمد ثورة للخوارج بها ثم حاول البر بقسمه لولا أن نصحه قاضيه أبو يوسف بدخول البلد ليلا آملا ألا يجد الخليفة أحدا يقتله عند دخوله ، وكان القاضى قد أشار على الناس بالتحصن بمنازلهم وأخبرهم بتهديدات

(١) انظر ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

أمير المؤمنين ، ويعطي أبو زكريا صورة قاتمة عن الفوضى التي شملت الدولة الاسلامية عند اختلاف الأمين والمأمون على السلطة ، ويضرب أمثلة على ذلك من داخل الموصل نفسها حيث كانت القبائل تتصارع على السلطة بها وكان المتصرون يعرضون رءوس ضحاياهم في شوارع المدينة ولا يخشون سلطان العباسيين المنهار . فلعل معارضته للعباسيين هي التي دفعتهم إلى إماتة ذكره واضطهاد كتبه .

* * *

هذا وقد وجدت إشارات إلى أبي زكريا في الكتب الآتية :

١ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/١٠٩ .

٢ ـ مروج الذهب للمسعودي ١/٦ .

٣ ـ الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ص١٣٣ .

٤ ـ الأنساب للسمعاني ص٤٠٦ .

٥ ـ معجم البلدان لياقوت ٧/٢٠٤ ، ٨/٦٢٦ .

٦ ـ لسان الميزان لابن حجر ٣/٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٤/٢٩ـ٣٠ .

٧ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر ١/٩١ ، ٢٤٢ ، ٣/٤١٤ ، ٧/٢٣٥ ، ٢٩٥ ، ٨/٣٤١ ، ٩/٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ١٠/١٩٩ .

٨ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١/٢٦٦ ، ٦/١٣٢ ، ٧/٣٢٥ ، ٨/٨٨ ، ٤٢٨ ، ٩/٣٦٥ ، ١١/٤١٩ ، ١٣/٩٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

٩ ـ أسد الغابة لابن الأثير ١/١١ .

١٠ ـ منية الأدباء للعمري في الصفحات ٣ ، ٣٩ ، ١٠٠ ، ١١٧ ، ١٦٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ .

١١ ـ تاريخ الموصل لسليمان صايغ ١/٦ ، ٩٣ .

١٢ ـ كشف الظنون لحاجي خليفة ١/١٨١ .

١٣ ـ هدية العارفين للبغدادي ٢/٥٣٦ .

١٤ ـ معجم المؤلفين لكحالة ١٣/٢٣٨ .

15. — Brockelmann, Supplement, I., 210;

16. — Wustenfeld, F., Die Geschichteschreiber der Araber und Ihre werke (No. 14);

17. — Carard, N., Histoire de la Dynastie des H'amdanides de jazira et de Syrie i., 17;
18. — Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscripts in the British Museum which does not mention تاريخ الموصل but only refers to طبقات العلماء بالموصل P. 407,
19. — The Encyclopaedia of Islam by F. Rosenthal who states that Abu Z. "treats the history of Mosul in the framework of General Contemporary History" and Praises the work as a "highly creditable achievement of early Muslim Historiography" (New Editionl, 813). 1958.
20. — Rosenthal, F., A History of Muslim Historiography" where the work is referred to as "an excellent"
An Excellent Annalistic History" (١)

ويلاحظ — كما قلنا — أن المؤرخين يخلطون دائما بين كتابى أبى زكريا : تاريخ الموصل وتاريخ محدثى الموصل أو طبقات المحدثين بالموصل . وليس ممكنا تعيين المراد من الكتابين عندما يتحدثون عن أبى زكريا .

* * *

عنوان الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه « تاريخ الموصل » ويوحى هذا العنوان بأنه تاريخ خاص لمدينة الموصل ومنطقتها ، وبالرغم من أنه من الصعب الحكم على ما إذا كان هذا تاريخا عاما أو تاريخا خاصا — وليس فى الكتاب مفتاح لرغبة المؤلف الأساسية ، وقد يكون ذلك لأننا لا نملك إلا الجزء الثانى من الكتاب ، وربما عرض أبو زكريا لاتجاهه الرئيسى فى مقدمة الجزء الأول من كتابه كما هى عادة المؤلفين — إلا أن هناك بعض الملاحظات التى قد تسمح بهذه التسمية ومنها :

(١) أنه يهتم بصورة واضحة بتاريخ الموصل وبكل ما يتعلق بها . ويذكر ملاحظات جادة عن حياة شعبها ومقدار ما وصل إليه من الرخاء أو الإهمال والاضطهاد

(٢) يعدد ولاتها وقضاتها ، ويذكر أنسابهم ويتعرض لطريقة استيلاء الوالى على السلطة وإلى علاقته بالخلافة ، وإلى ما قام به من إصلاحات وأثر هذه الإصلاحات فى حياة المدينة .

(٣) يذكر الكثير من العناصر الموصلية التى كان لها شأن فى سياسة البلد أو فى سياسة الدولة . أو التى شاركت فى ثورة أو ولاية ، ويتتبع أنساب هذه العناصر ، ويذكر مواطنها الأصلية ،

---

(1) Loc. cit pp 107, 132-4 , 405

ترجم الدكتور صالح العلى هذا الكتاب إلى اللغة العربية تحت عنوان : علم التاريخ عند المسلمين : بغداد ١٩٦٣ :

انظر عن أبى زكريا الصفحات ١٧٠ ، ٢١٠ — ٢١٢ ، ٢٣٩ ، ٦٥١ .

ومتى استقرت بالموصل ، ويتعرض أحيانا حتى للحوادث الصغيرة التى تتصل من قريب أو بعيد بالأسر الموصلية الحاكمة .

(٤) يذكر الخلافات العائلية والمعارك القبلية الموصلية بالتفصيل ، ولا ينسى أن يعرض لأسبابها ونتائجها ودرجة عنفها .

(٥) ومع أنه كمحدث نراه مشغولا بالرغبة فى الحديث عن العلماء المسلمين عامة إلا أنه يهتم بعلماء الموصل خاصة ويعطى تفصيلات مهمة عن حياتهم ومبلغ تقواهم .

وبرغم كل هذه الملاحظات والاعتبارات فليس من الصواب أن نقول إنه تاريخ خاص بالموصل أو تاريخ عام للدولة الاسلامية ، لأن أبا زكريا يعالج تاريخ بلده ضمن الإطار العام للتاريخ الاسلامى ، ولأنه كتاريخ خاص يصبح مثقلا بتفصيلات كثيرة قد لاتتصل بشىء من تاريخ الموصل ، وقد لايكون لها أثر ظاهر على مجرى الحوادث بها ؛ وكتاريخ عام يبدو ناقصا معيبا ، إذ يهتم بتفصيلات كثيرة عن تاريخ بلده ، ثم لايعرض بشىء ، أو بشىء ذى أهمية لكثير من قضايا التاريخ الاسلامى الكبرى مثل :

١ ـ التنظيم السياسى الذى خططه العباسيون وأشرفوا عليه لصالح دعوتهم .
٢ ـ وتمهيدهم لحركتهم الثورية بخراسان واستغلالهم للعصبيات القبلية هناك .
٣ ـ حركة الزندقة أيام المهدى والهادى .
٤ ـ الحركة العلمية أيام العباسيين .
٥ ـ المعارك الحربية على حدود الدولة فى الشرق والشمال .
٦ ـ النفوذ التركى أيام المعتصم .

فقد أهمل أبو زكريا بعض هذه القضايا التاريخية الهامة ، وذكر عن بعضها ملاحظات لاتقارن بما ذكره الطبرى وغيره ، وقد يبدو هذا شيئا غريبا من مؤلف يكتب عن التاريخ العام للدولة الاسلامية

ولعل الأقرب للصواب أن نقول : إنه تاريخ عام من وجهة نظر مواطن موصلى تثير اهتمامه بعض حوادث التاريخ التى أثرت فى حياة بلده ، فيسجلها بتفصيل وإسهاب وفى صدق وحماس .

* * *

لقد تأرجحت السلطة بالموصل فى حياة أبى زكريا ، وتتابع على المدينة ولاة من العرب والأتراك أو نوابهم ، وكانت لهؤلاء مع الموصليين مواقف اختلفت تبعا لأهوائهم ونواياهم ، فقاوم الناس نفوذهم وعارضوهم ، ولاشك أن هذه الفترة غير المستقرة قد لونت حياة أبى زكريا ، تلك الحياة التى لانعرف عنها شيئا يساعد على الاستنتاج .

ونحن لانعرف تاريخ ميلاده ونعلم التاريخ التقريبى لوفاته وتقع بعد عشر ومائة سنة من آخر سنة عالج حوادثها فى الجزء الثانى من كتابه ، ومعنى هذا أنه لايمكن القول بأن بالكتاب المذكور أية معلومات شخصية مباشرة حتى لو فرضنا أنه عاش قرنا من الزمان ، وهو شىء بعيد الاحتمال . فالخسارة إذا كبيرة لفقدان الجزء الثالث من تاريخ الموصل وهو الجزء الذى يتحدث فيه المؤلف عن الحوادث التى عاصرها ببلده ، وقد كان الكتاب الضائع يعطينا فكرة واضحة عن الزاوية التى نظر منها أبو زكريا إلى حوادث الموصل فى عصر امتلأ بالاضطراب والفتن والمفاجآت .

* * *

أبو زكريا أول مؤرخ يكتب عن تاريخ الموصل ، وإذا كان لم يسبق فى هذا الميدان[1] فقد جاء بعده تسعة من المؤلفين الذين دونوا تاريخها وألفوا كتبا تعرضت للحياة بها نذكرها فيما يلى :

١ ـ أخبار الموصل : للخالديين (أبى بكر وأبى عثمان) ت. ٣٧١ هـ. ٩٨١ م / ٣٩٠ هـ. ٩٩٩ م .

٢ ـ تاريخ الموصل : للشمشاطى ت. ٤٤٠ هـ. ١٠٤٨ م .

٣ ـ تاريخ الموصل . لإبراهيم الموصلى ت. ٥٧٧ هـ. ١١٨١ م .

٤ ـ تاريخ الموصل : لابن باطيش ت. ٦٥٥ هـ. ١٢٥٧م .

٥ ـ الباهر فى أتابكة الموصل : لابن الأثير ت ٦٣٠ هـ ١٢٣٢م .

٦ ـ منية الأدباء فى تاريخ الموصل : لياسين بن خير الله العمرى ت. ١٢٣٢ هـ. ١٨١٦ م .

٧ ـ منهل الأولياء فى تاريخ الموصل : لمحمد بن خير الله العمرى : مخطوط ألف سنة ١٢٠١ هـ ١٧٨٦ م . Ms. British Museum No 2429

٨ ـ تاريخ الموصل : لسليمان صايغ ط ١٣٤٢ هـ. ١٩٢٣م .

٩ ـ الموصل فى عهد الأتابكة . لسعيد الديوه جى ط ١٣٧٨ هـ. ١٩٥٨ م .

---

(١) بمقدار ماوصل إليه معرفتنا ، أو فيما يبدو على الأقل .

والكتب الأربعة الأولى قريبة العهد من أبى زكريا ، وهى مفقودة وقد كان وجودها مُهمًّا حيث كان يمكن معرفة مدى تأثرها بتاريخ الموصل ولاسيا الكتاب الأول الذى عاش مؤلفاه بالموصل وعاصرا أبا زكريا أيضا . ويبدو أن مؤلفى الكتابين السادس والسابع لايعرفان شيئا عن أبى زكريا ، وأشار صاحب الكتاب الثامن إلى أبى زكريا وأسف لأنه لم يتمكن من العثور على كتبه ووصفه بأنه أول مؤرخى الموصل وبأنه كان من نبغاء عصره [1] . وأما الكتابان الخامس والتاسع فقد عالجا موضوعا بعيدا عن أبى زكريا وإن كان المؤلفان يعرفان أبا زكريا جيدا ويشيران إليه ويعترفان به كمصدر هام من مصادرهما .

وبقى أن نقول إن حاجى خليفة فى « كشف الظنون »[2] يشير إلى مؤلفين آخرين فى تاريخ الموصل وهما :

١ ــ أخبار الموصل لأبى زكوة .

٢ ــ تاريخ الموصل لزكريا الموصلى .

ولم يذكر أحد غيره هذين الكتابين ، ويمكن أن نقول : إن كلمة (أبى) ساقطة من اسم مؤلف الكتاب الثانى ، وما هو إلا أبو زكريا الأزدى الموصلى مؤلف تاريخ الموصل الذى نتحدث عنه ، ثم إن أبا زكوة أو ذكوة ــ وهى كنية مؤلف الكتاب الأول ــ ما هى إلا كنية أبى زكريا الأزدى مؤلف تاريخ الموصل ، أطلقها عليه الذهبى فى تذكرة الحفاظ ٣/١٠٩ ، والبغدادى فى هدية العارفين ٢/٥٣٦ والمسعودى فى مروج الذهب ١/٦ ، وجاءت الكلمة مرة «أبو زكرة» ومرة «أبو ركوة» مما يدل على أن ما ذكرهما حاجى خليفة على أنهما كتابان مختلفان ماهما إلا تاريخ الموصل الذى نعرف به ونتحدث عنه .

* * *

أبو زكريا هو المصدر الأصلى لكل المعلومات التاريخية الخاصة بالموصل لأنه أول مؤرخ كتب تاريخا لهذه المدينة ، وليس فى كل الكتب التى ألفت بعده والتى عنيت بتاريخ الموصل أية زيادة هامة لم يذكرها أبو زكريا ؛ ومعظم المؤلفين اللذين أشرت إليهم والذين ألفوا فى هذا

---

(١) انظر ١/٦ ، ٩٣ .

(٢) انظر ١/١٨١

الموضوع قد انتفعوا بكتاب أبي زكريا إما عن طريق مباشر أو غير مباشر ، وبالرغم من أن بعض هذه الكتب قد فقد إلا أنه لاشك أن هؤلاء المؤلفين قد اطلعوا على كتاب أبي زكريا واستفادوا منه ، لأنه مواطن ، ولأنه كان الرائد الأول ، ولا يهمل عالم جهود من سبقوه أو محاولات من قبله . والشيء الواضح الأكيد أن ابن الأثير – وهو مؤرخ موصلي عاش بالموصل وشغل بتاريخها وألف فيه كتابا خاصا – قد نقل كل المعلومات التاريخية الخاصة بالموصل – التي ذكرها في كتابه الكامل – من كتاب تاريخ الموصل لأبي زكريا ، ويبدو النقل والاختصار من كتاب أبي زكريا واضحا في كل ماكتبه ابن الأثير في الكامل عن الموصل ، وتكفي الإشارة إلى الموضوعات والصفحات في الكتابين ليرى القارئ أن أبا زكريا كان سيئ الحظ حتى مع مواطنيه الذين أفادوا منه ولم يشيروا إليه ، وربما أثارت إشارة ابن الأثير إلى أبي زكريا انتباه الباحثين له ودفعت على دراسة آثاره والبحث عن كتبه ؛ ولكن ابن الأثير برغم اعترافه بفضل الطبري عليه في مقدمة كتابه ظل صامتا عن ذكر أبي زكريا مع أنه نقل عنه واعتمد عليه في السنوات ١٠١–٢٢٤ هـ وهي الفترة التي يعالجها كتاب أبي زكريا ،وبالنسبة للفترة التي قبلها لانجد في الكامل شيئا كثيرا عنها ،مما يشير إلى أن الجزء الأول من كتاب أبي زكريا ربما كان قد فقد قبل أيام ابن الأثير ، وأما الفترة بعد سنة ٢٢٤ هـ. فيذكر ابن الأثير عنها الشيء الكثير ، وقد يكون ذلك لأن الجزء الثالث من تاريخ الموصل كان موجودا في ذلك الوقت أو أن ابن الأثير حصل على مرجع آخر أو استعان ببعض المعلومات الشفهية ، وخاصة بالنسبة للفترة القريبة منه . وليس ممكنا أن يقال إن ابن الأثير كان لايعرف أبا زكريا لأن المشابهة لاشك فيها بين تاريخ الموصل في كتابه وتاريخها في كتاب أبي زكريا ، ثم إنه يعرف أبا زكريا جيدا ، وإن فصلت بينهما قرون ثلاثة ، وقد ذكره في مقدمة كتابه « أسد الغابة » كواحد من مصادره الأساسية كما قلنا ، ومن أهم الموضوعات المتشابهة في الكتابين ما يلي :

١ – وفاة الحر بن يوسف	تاريخ الموصل	٢/٢٨	، الكامل ٥/٦٥ .
٢ – ثورة نصر بن شبث	»	٢/٢٨٤ ،	» ٦/١٠٤
٣ – قتل أهل الموصل	»	٢/١٢٥[1] ،	» ٥/١٦٦
٤ – المأمون والسيد بن أنس	»	٢/٣٠١ .	» ٦/١٢٢ .

٥ – ثورة الخوارج على الرشيد	تاريخ الموصل	٢/٢٤٥ ،	الكامل ٦/٥٠ .
٦ – قتل بنى الحسن الموصليين	»	٢/٢٩١ ،	» ٦/١١٩ .
٧ – وقعة الميدان	»	٢/٢٨٢ ،	» ٦/١٠٢ .
٨ – فتنة الموصل	»	٢/٢٨٥ ،	» ٦/١٠٨
٩ – حسان بن مجالد الخارجى	»	٢/١٧٧ ،	» ٥/٢١٦ .
١٠ – قتل السيد بن أنس	»	٢/٣١٦ ،	» ٦/١٣٦ .
١١ – محمد بن حميد الطائى	»	٢/٣٢٠ ،	» ٦/١٣٨ .
١٢ – قتل ابن حميد بأذربيجان	»	٢/٣٢٤ ،	» ٦/١٣٩ .

وفى كل هذه الموضوعات التاريخية تأثر ابن الأثير تأثرا واضحا بما كتبه أبو زكريا فقد نقل بعضها نقلا حرفيا ، واختصر بعضها الآخر اختصارا مخلا أحيانا ، وربما كان مدفوعا لهذا الاختصار بالضرورة لأنه إنما كان يكتب تاريخا عاما للدولة الاسلامية وفى كلتا الحالتين لم يشر لأبى زكريا ولم يذكره أيضا فى مقدمة كتابه الكامل ولا فى مكان آخر منه .

وتبدو المشابهة أيضا واضحة بين كثير مما كتبه أبو زكريا وبين ماكتبه الطبرى فى تاريخ الرسل والملوك ، وخاصة فى عشرة موضوعات مهمة وهى :

١ – ثورة الخوارج ضد يزيد بن عبد الملك :

تاريخ الطبرى ٢/١٣٧٥ ، تاريخ الموصل ٢/٤–٥ .

٢ – ثورة يزيد بن المهلب على الخليفة يزيد بن عبد الملك :

تاريخ الطبرى ٢/١٣٨٩ ، تاريخ الموصل ٢/٥–١٣ .

٣ – قتل خالد القسرى :

تاريخ الطبرى ٢/١٨٢١ ، تاريخ الموصل ٢/٤٥ .

٤ – كفاح الخوارج ضد مروان بن محمد .

تاريخ الطبرى ٢/١٩٤٠ ، تاريخ الموصل ٢/٥٨

٥ – ثورة أبى حمزة الخارجى بمكة والمدينة .

تاريخ الطبرى ٢ / ١٩٨١ ، تاريخ الموصل ٢ / ٨٨ .

٦ — جهاد قحطبة بن شبيب الطائى لصالح العباسيين :

تاريخ الطبرى ٣ / ٩ ، تاريخ الموصل ٢ / ١٠٠ .

٧ — هزيمة مروان بن محمد أمام العباسيين :

تاريخ الطبرى ٣ / ٣٨ ، تاريخ الموصل ٢ / ١٠٧ .

٨ — علاقة هارون الرشيد بعبد الملك بن صالح :

تاريخ الطبرى ٣ / ٦٨٨ ، تاريخ الموصل ٢ / ٢٢٨ .

٩ — قتل جعفر البرمكى بأمر الرشيد :

تاريخ الطبرى ٣ / ٦٧٨ ، تاريخ الموصل ٢ / ٢٦٠ .

١٠ — رحلة المأمون إلى الشام :

تاريخ الطبرى ٣ / ١١٥٠ ، تاريخ الموصل ٢ / ٣٤٥ .

اتبع أبو زكريا فى كل هذه الموضوعات التاريخية خطوات الطبرى وتأثر به ، وقد كانت شهرة الطبرى طاغية فى عصره ، وقد لا يحتاج أبو زكريا إلى أن يشير إليه فى كتابه ، وربما أشار إليه فى مقدمة الجزء الأول من تاريخ الموصل . ولكن هل من الضرورى أن نقول إن المشابهة الواضحة الأكيدة بين الطبرى وأبى زكريا فى هذه الموضوعات — أو فى غيرها — تدفع إلى القول بأن أبا زكريا قد نقل فعلا من معاصره الشهير ؟

إن المشابهة كبيرة ولاشك والألفاظ أحيانا واحدة ، ولكن ذلك ليس فقط فى كتابى الطبرى وأبى زكريا ، بل وفى كتب أخرى غيرهما ، ومعنى ذلك أن غير أبى زكريا قد اعتمد أيضا على الطبرى وأن الطبرى هو المصدر الأول لهذه الحوادث بهذه الصيغ ، أو أن هذه القضايا التاريخية قد اتخذت صورة معينة ورويت بنفس العبارات منذ زمن مبكر ، رواها الطبرى وأبو زكريا وغيرهما من رواة مختلفين . وقد حاولت تتبع أوجه التشابه فى الكتابين المذكورين فوجدت أن أبا زكريا يروى بعض هذه الحوادث التاريخية الهامة عن رواة غير رواة الطبرى ، ومعنى هذا أن القصة أخذت هيئة معينة وصورة خاصة ، ورويت للطبرى وأبى زكريا عن طريقين مختلفين ، ولم يعتمد أحدهما على الآخر ، وترجع الرواية فى النهاية إلى نفس الراوى الأول

الذى نقل عنه الخبر إلى رواة متعددين . وفى حالات أخرى نجد مشابهة واتفاقا فى الألفاظ والعبارات ولا يذكر أبو زكريا رواته بل يدخل فى الموضوع هكذا : وفى هذه السنة حدث كذا وكذا ، بنفس عبارات الطبرى وأسلوبه ، وقد يكون نقلها من كتاب الطبرى وأشار إلى ذلك فى مقدمة كتابه أو لم يشر لذلك اكتفاء بأنها أصبحت مشهورة بالصيغة التى ذكرها الطبرى .

* * *

تبدو القيمة العلمية لكتاب أبى زكريا الأزدى فيما يضيفه من جديد للتاريخ الاسلامى مما ليس موجودا فى كتب التاريخ الأخرى ، وفى هذا الكتاب المهم إضافات جديدة تفسر بعض الصعوبات أو تشرح بعض الغموض أو تضع حدا لبعض المناقشات العلمية أو تضيف جديدا لمادة التاريخ الاسلامى ، ومنها :

(١) يتحدث الكتاب عن تاريخ الموصل من سنة ١٠١هـ إلى سنة ٢٢٤هـ/ ٧١٩–٨٣٨م .

وكل ما ذكره ابن الأثير فى الكامل ، وكل ما أخذه ابن خلدون فى العبر من كتاب ابن الأثير ، وكل ماذكر فى المراجع اللاحقة عن تاريخ الموصل فى خلال تلك الفترة مأخوذ من تاريخ الموصل لأبى زكريا الأزدى الذى عرض فى وعى تام للجهود الطيبة التى بذلها الولاة الأمويون لتقدم الحياة بالموصل ، وبين دور المدينة فى حروب الخوارج ووضح كيف اتخذوها مركزا لنشاطهم الحربى ، وتكلم بالتفصيل عن سياسة العباسيين فيها وكيف اضطهدوا أهلها وعاقبوا – فى أوائل حكمهم – عددا كبيرا منهم ، وهو فى هذا مؤرخ ممتاز يسجل كل شىء ، ويذكر مختلف الآراء(١) .

على أنه كان ينساق أحيانا مع عواطفه وينلفع فى التعريض بالخلفاء إلى حد أن يقول إن ولاة الرشيد كانوا ظلمة وكان يجب أن يكونوا قساة ظالمين ليحظوا برضاه وتأييده ، وقد فاق ظلمهم كل تقدير حتى خربوا قرى كاملة تركها أهلها فرارا من الطغاة والضرائب المتأخرة التى كانت تجمع بعنف وقسوة لتهدى إلى النوكى والعابثين ، وكان من المناسب أن يعرض أبو زكريا للأسباب الرئيسية التى دفعت العباسيين عامة والرشيد خاصة إلى اتباع مثل تلك السياسة الظالمة مع الموصل وأهلها ، وهو لم يذكر أيضا لماذا اتخذ الخوارج الموصل مركزا

(١) انظر الصفحات ١٤٥ - ١٥٥ .

لتجمعاتهم وحروبهم العنيفة التى أثاروها ضد آخر خلفاء الأمويين مروان بن محمد الذى أقسم فى ساعة من ساعات غضبه أن ينتقم من الموصليين جميعا لمساعدتهم الخوارج ولكنه عفا عنهم بعد انتصاره .

وفى حديثه عن علاقة العباسيين بالموصل يقول أبو زكريا إنه كانت هناك عناصر موصلية ثارت ضد الأمويين فى أواخر عهدهم وشاركت الخوارج فى محاولة تحطيم دولتهم ، ويقول إن المدينة أغلقت أبوابها فى وجه آخر خلفائهم حين لجأ إليها فارا من خطر العباسيين الأسود ، وكانوا يطاردونه بعناد حتى لايتركوا له فرصة للراحة أو الاستعداد من جديد ، ويذكر أسماء رجال موصليين ساهموا بحماس فى جيش العباسيين الذى طارد الخليفة الأموى حتى قتل بمصر ، وكان العباسيون — كما يقول أبو زكريا — راضين تماما عن جهود رجال الموصل الذين أخلصوا لهم العمل ، وقدموا لهم برهان الولاء فكوفئوا بإقطاعيات تحدث أبو زكريا عن حدودها بالموصل(١) ؛ ولكنه يقول أيضا إن المدينة قاست اضطهادا عجيبا من جانب العباسيين المنتصرين الذين اتهموا سكانها بحب الأمويين واستباحوا بذلك قتل عدد كبير منهم ، وخربوا أسواق المدينة وبعض مناطقها ، واضطروا كثيرا من سكانها إلى الهجرة إلى أذربيجان وغيرها ، وعرض أبو زكريا فى عشر صفحات مآسى العباسيين وقسوتهم ؛ وقد لايكون فى ذلك نوع من التناقض فى سياسة الحكام الجدد لأنهم كافئوا المحسن بسخاء وعاقبوا المسئ بقسوة ، وكان الولاء للأمويين تهمة خطيرة تستحق العقاب الشديد ، خاصة فى فترة تأسيس دولة العباسيين الذين كان يهمهم الاستقرار قبل كل شىء ، غير أن أبا زكريا يميل إلى القول بأن سياسة العباسيين اتخذت طابعا معينا تجاه الموصل ، وهو طابع العنف وسوء الظن ، فالمنصور يطلب من العلماء أن يفتوه بإباحة قتل الموصليين ويقف أبو حنيفة فى وجهه رافضا طلبه ومبينا خطأ اتجاهه ، والرشيد يختار لحكم البلد ولاة قساة ، ويعزل كل من يحاول التقرب إلى الجماهير ، ويذهب بنفسه ليعاقب أهل الموصل الذين رفضوا ولاته وتآمروا على قتله ، ولا يعرض أبو زكريا لشىء من الأسباب الحقيقية لكل هذه الاضطرابات ، ثم يذكر كيف ساءت الحال بالموصل أثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون وكيف أصبح القانون أن يتغلب على البلد من هو أشد قوة وأكثر

---

(١) انظر ص ١٥٨ ، وص ١٧٢ .

جمعا ، ويقول إن القبائل بالمدينة كانت تتحارب وتتطارد بالصحراء وكان المنتصرون يعرضون رءوس ضحاياهم فى شوارع المدينة بلا خوف من سلطة أو رعاية لقانون ، ثم يتتبع أبو زكريا الصراع على السلطة بالموصل ويفرد له حديثا طويلا[١] ، ويقول إن الخصومات كادت تفنى قبائل كبيرة لولا أن تدارك عقلاؤها حالتهم المشينة

ومن الواضح أن هذه المنطقة كانت منطقة مضطربة تقع على الحدود الشمالية للدولة ، ويسكنها أجناس مختلطة ، وهى قريبة من دولة معادية ، وبها مناطق جبلية تسهل سبل الفرار للثوار الذين قد يدفعون إلى الثورة بعوامل خارجية أو بأى تحريض من أى جانب

(٢) ذكر أبو زكريا كتاب الأمان الذى كتبه المنصور لعمه عبد الله بن على ، ولا نجد هذا الكتاب كاملا فى أى مرجع آخر ، وكل ما ذكر منه جمل أو فقرات مختصرة ، وهو كتاب مهم أثيرت حوله مناقشات كثيرة واندفع بعض الباحثين إلى انكاره إذ لم يوجد كاملا فى مصادر التاريخ الأساسية[٢] .

(٣) سجل أبو زكريا حديثا للخليفة المنصور تحدث فيه عن علاقة العباسيين بالقبائل العربية ، وذكر بالتفصيل كيف كان اليمنيون ملوكا فى الجاهلية على المضريين ثم شرح علاقة الخلفاء الأمويين وغيرهم بكل من هذه القبائل[٣] .

(٤) تعرض الكتاب لأنساب بعض الموصليين بالتفصيل فيما يزيد على ثلاث وعشرين صفحة[٤]

(٥) وتحدث باختصار غالبا عن عدد كبير من العلماء الموصليين وغير الموصليين ، ولا نجد للكثيرين منهم ذكرا فى الكتب الأخرى .

(٦) وفى كتاب أبى زكريا سبعمائة بيت من الشعر العربى وبعضه جديد قيل فى مناسبات محلية خاصة ولا وجود له فى كتب الأدب أو التاريخ أو أية مصادر أخرى .

(٧) وبالكتاب مسائل فقهية ومناقشات علمية غير معروفة أو مشهورة .

(١) انظر الصفحات ٣٣٢ — ٣٣٤، ٣٣٦ — ٣٣٨، ٣٤٣ — ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٦٦ — ٣٧٣، ٣٨٣ — ٤٢٣، ٤٢٩

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص ٤٦ . وانظر الصفحات ١٦٨ — ١٧١ .

(٣) انظر الصفحات ٢١٩ — ٢٢٣ . (٤) انظر الصفحات ٧٧ — ١٠٢ .

(٨) وأخيرا يذكر قصة تفصيلية كاملة عن حرب محمد بن حميد الطوسى مع بابك الخرمى ، ويمثل ابن حميد فى رأى أبى زكريا بطلا كبيرا إذ رد الأمن والسلام إلى منطقة الموصل المضطربة بعد حروب أهلية استمرت سنوات طويلة ، ولهذا نراه يهتم بهذا القائد ويفرد له حديثا خاصا ، ويذكر حسن خلقه وشجاعته وسماحة نفسه وكرمه ، ثم يروى حروبه بأذربيجان ، هذه الحروب التى انتهت بهزيمته وقتله على يد جيوش الخرمية .

مصادر أبى زكريا

يقول أبو زكريا ص ٢٥٠ من كتابه : « ولم أعمل هذا التاريخ من كتاب معمول مؤلف اعتمدت فيه على أمر الموصل خاصة ، وإنما جمعته من كتب شتى ، وقد ذكرت ما وجدت ، ولم أعدل عن الصدق » .

ولا يعنى هذا القول أن جميع مادته مستقاة من كتب من سبقوه أو عاصروه ، أو أن الجزء الأكبر منها أتى من هذه المراجع ، لأن معظم مادة أبى زكريا أتت عن طريق الرواية الشفهية على طريقة المحدثين ، ولم يبق إلا حالات لا تزيد على المائة لم يصرح أبو زكريا فيها بالمصدر الذى استقى منه معلوماته ونرجح أنه نقلها من كتب السابقين أو المعاصرين له ، ولم يبق كذلك إلا ثمانى عشرة حالة يشير فيها بصراحة إلى أنه أخذها من كتب مؤلفين عينهم وذكر أسماءهم . ويشير كلامه إلى أنه لم يعتمد اعتمادا كليا على كتاب واحد ، وإنما جمع ما دته من كتب شتى ، وهو لايذكر عناوين الكتب التى انتفع بها وإنما يذكر أسماء المؤلفين كأن يقول · وجدت فى كتاب للحارث بن الجارود ، أو فى كتب الحارث القديمة ، أو فى كتاب لابن أبى المثنى ، وقد يقول - قرأت فى كتاب قديم ،أو قرأت فى كتاب ،أو قرأت فى بعض الكتب ،أو قرأت فى تاريخ ؛ ولا يزيد على ذلك شيئا ، وهو فى هذا يتبع طريقة معاصريه الذين فهموا أن الإشارة إلى المصادر المكتوبة لم تكن تعنى إلا تقوية الرواية وتوثيق الخبر ، ولا صلة لها بما نفهمه اليوم من ضرورة الإشارة إلى المصادر وطبعاتها ومؤلفيها بأمانة ودقة حتى يمكن مراجعتها ومعرفة مدى صدقها وأصالتها .

وكم كان مفيدا للبحث العلمى لو حدد أبو زكريا بوضوح عناوين الكتب التى رجع إليها

وأسماء مؤلفيها ، حتى لايقع قارئه فى حيرة ، فقد يؤلف مؤلف واحد عدة كتب ؛ وصحيح أن كثيرا من كتب المؤلفين الذين ذكرهم قد ضاعت ، غير أن الدقة فى الإشارة إلى الكتب والتعريف بها كانت تساعد فى إلقاء الضوء عليها ومعرفة شىء عنها .

وفى الرواية الشفهية يتبع أبو زكريا خطوات المحدثين والمؤرخين الذين سبقوه أو عاصروه ، وبما أنه كان محدثا فليس عجيبا أن يسير فى نفس الطريق إذ يبدأ بالإشارة إلى الراوى الذى نقل له الحديث ثم يتدرج فى ذكر الرواة حتى يصل إلى الراوى الأول للخبر ، وقد تطول سلسلة الرواة إلى ستة أو خمسة وقد تقصر إلى اثنين وقد يروى له الخبر شيخه أو أحد تلاميذه .

وقد يقول :أخبرنى بعض المشايخ ،أو أهل العلم ،أو بعض أصدقائى ، أو قيل ،أو هكذا قيل ، أو بلغنى ،أو أخبرت ، أو ذكر لى ، أوحدثت .

وهو يحرص على أن يكون لكل خبر راو ، ولا يشذ عن ذلك إلا إذا كان ينقل من كتب غيره ، وفى هذه الحالة يقول : وفى هذه السنة حدث كذا وكذا ثم يستطرد فى ذكر المعلومات التى ينقلها .

وطريقة الرواية تفيد فى توثيق الخبر إلا أن أبا زكريا يبدو كأنه يرى أن مهمته تقتصر على نقل الخبر كما يروى له ، ويكفى عنده أن يكون الرواة ثقة ، وليس عليه بعد ذلك أن يختبر الخبر فى ذاته أو أن يبدى رأيه فيه ، وحتى إذا اختلفت الآراء حول حادثة ما فإنه يسجلها كما رويت له ، وأحيانا يرجح أحدها بقوله . «وأهل البلد أعلم بتاريخهم » ، أو «ذكر أهل العلم ذلك » ، أو «قال من له علم بالتاريخ وخبرة غير هذا » . وليس معنى هذا أنه كان دائما يذكر الخبر على علاته ، لأنه كمحدث لابد وأن يكون شديد الحرص على اختيار رواته ، ولابد أنه كان يبحث صحة الخبر أحيانا كما يبحث حالة الرواة دائما .

يروى أبو زكريا ما روى له من غير تدخل من جانبه وبدون تعليق أو شرح ويترك القارئ يستنتج ما يرى ، وإذا تضاربت الروايات فإنه يتدخل ويبدى رأيه أحيانا ولكن هذا قليل وهو يمثل أقل مجهود ممكن فى النقد والتمحيص ، وقد يميل أبو زكريا إلى قبول أحد الرأيين أو الآراء وهذا يشير إلى أنه لا يعتبر النقد مباحا فى حوادث التاريخ مادامت سلسلة الرواة غير مطعون فيها ، ولقد قرر أن مهمة المؤرخ أن يروى ويسجل ما وجده بدقة وأمانة (١) ،

(١) انظر ص ٢٥٠ .